الإعجاز البياني في تشبيهات النبي صلى الله عليه و سلم

e miraculous graph in the analogy when the Prophet Muhammad peace be upon him

صفية حسين

باحثة دكتوراه – كلية العلوم الإسلامية- الخروبة – الجزائر

البريد الالكتروني: safiahoc@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2018/02/03 تاريخ القبول: 2018/05/26

الملخص:

لا يقلّ الحديث النّبوي مكانة و جمالا في ألفاظه و أساليبه عن القرآن الكريم، كيف لا وهو الصادر عن المصطفى ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى. و من أهمّ الأساليب التي استخدمها النبي ﷺ في تبيان الحقائق، وتوضيحها، وتقريبها، أسلوب التشبيه التمثيلي، و هو من الأساليب البلاغية الراقية، التى تميزت بها اللغة العربية لجذب اهتمام المخاطبين، و تقريب الفهم إلى أذهانهم، و ترسيخ الفكرة في عقولهم، في جوّ من الخيال الرّحب الذي يجعل المتلقّي يحلّق في آفاق المعنى مجسّدا كأنّه صورة واقعية حيّة، ممّا يجعله أكثر قدرة على التأثير و التّأثر.

و ما أحوجنا اليوم في زمن الرقميات و الحضارة الإلكترونية أن نغيّر من أساليبنا التربوية و التعليمية - حيث أصبح التلقين أسلوبا عتيقا لا يؤتي ثماره- فننهل من أساليب النبي ﷺ ما يعيننا في أداء مهّمتنا، في جوّ يجمع بين الخيال و الواقع، و هو جوّ التشبيه التمثيلي.

الكلمات المفتاحية: التشبيه – التشبيه التمثيلي – الإعجاز البياني – الإعجاز – الحديث النبوي.

Abstract:

One of the most important methods used by the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him) is to clarify the facts and bring them

closer to the method of representative analogy, which is one of the most distinguished rhetorical methods that characterized the Arabic language to attract the attention of the Sahabah, to tighten their imagination and connect them with tangible images close to their field of perception.
Today in the time of digitization and electronic civilization, where the indoctrination has become an old method, we need to change our educational methods from the methods of the Prophet peace be upon him which helps us performing our mission, in an atmosphere that combines fantasy and reality.

Keywords : analogy, analog representation, rhetorical presentation, prophetic hadith.

تقديم:

الحمد لله رب العالمين و الصّلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين، سيدنا محمد عليه و على آله و صحبه أفضل الصّلاة و التسليم، و بعد:

لقد شاع في أوساط بعض المتعلّمين في زماننا أنّ القرآن وحده، هو المعجزة الربانية، أمّا السنّة فهي قول بشر، و لا إعجاز فيها، و لكن حقيقة الأمر غير ذلك؛ فالسنّة النبوية فيها من البلاغة و الفصاحة، و الحكم و الأسرار ما يجعلها معجزة بحقّ، كيف لا و الله تعالى يقول: "**و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى**" [النجم:3-4]؛ و قد قال النبي صلى الله عليه و سلّم عن نفسه: "**أوتيت جوامع الكلم**" [مسند الإمام أحمد 12/366: 7403] و[البيهقي: شعب الإيمان 3/1366:37]. و قد سأله الصحابة **الكرام**، **فقالوا: "يا رسول الله مالك أفصحنا لسانا و أبيننا بيانا؟ فقال النبي صلى الله عليه و سلّم: "إنّ العربية اندرست فجاءني بها جبريل غضّة طرية كما شُقّ على لسان إسماعيل عليه السلام"** [البرهانفوري: كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال7/18680:215]؛ و[ابن عساكر: تاريخ دمشق 53/103: 6403].

من هنا ارتأيت أن أوضّح جانب الإعجاز البياني في جانب من الجوانب الأدبية المتعلقة بأحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلّم، فاخترت تشبيهات النبي صلى الله عليه وسلّم، لما لها من تأثير عظيم في مجال التربية و التعليم. و انتقيت ثلاثا من أحاديثه المبرمجة في

مادة العلوم الإسلامية – المستوى الأوّل و الثاني من التعليم الثانوي-، لتكون نموذجا لمن يدرّسها، و فائدة لمن يدرسها.

إشكالية البحث:

تكمن مشكلة البحث في نقطتين:

1- إبراز الوجه الإعجازي في أحاديث النبي صلى الله عليه و سلّم، من خلال أسلوب التشبيه التمثيلي، ليتمكّن القارئ من تلمّس مواطن الجمال في كلام المصطفى عليه الصلاة و السلام، فينفعل وجدانه، و يستنير عقله.

2- بيان أنّ ما يصدر عن النبي صلى الله عليه و سلّم و إن لم يكن وحيا بالمفهوم الاصطلاحي، لكنه من سبيله، و جزء منه.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى إلقاء الضوء على جانب من جوانب الإعجاز البياني في الحديث النبوي، من خلال التشبيهات التي استعملها النبي صلى الله عليه و سلّم لتعليم أصحابه، وإرشادهم، و جذب انتباههم، ليكون ذلك قدوتنا في مجال التربية و التعليم، مع جيل يعتمد كثيرا على العالم الافتراضي، و الإلكتروني؛ و يسأم بسرعة من الأسلوب التلقيني القديم؛ فيكون هذا الأسلوب النبوي طريقا للجمع بين الأمرين، لكونه يجمع بين الخيال و الواقع؛ و يفضلهما في كونه يخرج الصور المجردة الخيالية في صور حسية ملموسة.

منهج البحث:

اعتمدت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، من خلال عرض مجموعة من أحاديث النبي صلى الله عليه و سلّم، و تحليل معناها، مع التركيز على الجانب الإعجازي فيها.

خطة البحث:

مقدّمة: و أعرض فيها: إشكالية البحث، و أهدافه، و المنهج.

المبحث الأول: عرض موجز لنظرية التشبيه عند البلاغيين (التعريف، الأركان، الأقسام).

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية للتشبيه التمثيلي في مجموعة من أحاديث النبي صلى الله عليه و سلّم.

المبحث الثالث: الجانب الإعجازي في تشبيهات النبي صلى الله عليه و سلّم من خلال أحاديثه.

الخاتمة: و أعرض فيها أهم نتائج البحث.

المبحث الأول: عرض موجز لنظرية التشبيه عند البلاغيين (التعريف، الأركان، الأقسام):

أوّلا: تعريف التشبيه:

1- التعريف اللغوي: التشبيه في اللغة هو المماثلة أو التمثيل، قال ابن منظور: الشبه والشبيه: المثل، و الجمع: أشباه؛ و أشبه الشيء الشيء ماثله...و التشبيه: التمثيل (1). وقال الرازي: "يقال: هذا شبهه أي شبيهه و بينهما شبه؛ و المتشابهات: المتماثلات، والتشبيه: التمثيل (2).

و من خلال هذين التعريفين نلاحظ أنّ اللغويين لم يفرّقوا بين التشبيه و التمثيل، و هو ما ذهب إليه بعض علماء البيان و البلاغة أيضا، حيث قال ابن الأثير:" وجدت علماء البلاغة قد فرّقوا بين التشبيه و التّمثيل، و جعلوا لهذا بابا مفردا، و لهذا بابا مفردا، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع" (3)، و لعلّه يقصد بذلك عبد القاهر الجرجاني الذي وضع مقارنة بين التشبيه و التمثيل، و استنتج منها: "أنّ التشبيه عام والتمثيل أخصّ منه، فكل تمثيل تشبيه و ليس كل تشبيه تمثيل" (4).

2- فنّ التشبيه عند البلاغيين: يعدّ المبرّد (285ه) من أوائل الذين فتحوا باب فنّ التشبيه، حيث قال: "و اعلم أنّ للتشبيه حدّا، فالأشياء تشابه من وجوه و تباين من وجوه، فإنّما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع، فإذا شبّه الوجه بالشمس، فإنّما يراد الضّياء و الرونق، لايراد به العظم، و الإحراق" (5)؛ ثم توالى بعده عدد جمّ من البلاغيين الذين عرّفوا التشبيه بتعريفات تختلف من حيث اللفظ، و لكنها متفقة المعنى، و منها:

- تعريف ابن رشيق (ت 481ه) فهو يعرّفه بقوله: "التشبيه: صفة الشيء بما قاربه و شاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنّه لو نابه منابة كلية لكان إيّاه" (6).
- تعريف الخطيب القزويني (739ه)، حيث عرّفه بقوله: "التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في المعنى" (7).

و بإمعان النظر في هذه التعريفات نرى أنّه لا فرق بينها إلاّ من حيث اللفظ، كما نعرف أنّ المشابهة بين المشبّه و المشبّه به لا تكون من كلّ الوجوه، بل من وجه، و المفارقة من وجه آخر، و لا يمكن أن يرتفع الاختلاف من كلّ الوجوه، لأنّ الاختلاف من كلّ الوجوه يبطل معه التشبيه؛ و إلاّ فهو كتشبيه الشيء بنفسه، و هو لا يجوز لأنّه لا يفيد شيئا.

ثانيا: أركان التشبيه و أقسامه:

1/ أركان التشبيه: أربعة و هي:

- المشبّه و المشبّه به: و هما طرفا التشبيه.

- أداة التشبيه: و هي اللفظ الذي يدل على معنى المشابهة، كالكاف، و كأن، ومثل و ما في معناها.

- وجه الشبه: و هو الوصف الخاص الذي قصد اشتراك الطرفين - المشبه والمشبه به – فيه، و يجب أن يكون أقوى و أظهر في المشبه به منه في الشبه.

2/ أقسام التشبيه: و هي متعدّدة يمكن حصرها في قسمين:

القسم الأول: التشبيه باعتبار أداته: و ينقسم بهذا باعتبار إلى ثلاثة أقسام:

1. **التشبيه المرسل**: و هو ما ذكرت فيه الأداة، و تسميته بالمرسل، لإرساله عن التأكيد.

2. **التشبيه المؤكّد**: و هو ما حذفت منه الأداة ، و يسمى (مؤكّداً) لإيهامه أن المشّبه عين المشبّه به.

3. **التشبيه البليغ**: و هو ما حذف فيه أداة التشبيه و وجه الشبه، و يسمّى بليغاً، لبلوغه نهاية الحسن و القبول، لقوّة المبالغة في التشبيه، حتى يظن أنّ المشبه هو المشبه به.

القسم الثاني: باعتبار وجه الشبه: و ينقسم بهذا الاعتبار إلى ستة أقسام:

1. **تشبيه التمثيل**: و هو ما كان وجه الشبه منتزعاً من متعدّد.
2. **تشبيه غير التمثيل**: و هو ما لم يكن منتزعاً من متعدّد.
3. **التشبيه المفصل**: و هو ما ذكر فيه وجه الشبه أو ملزومه.
4. **التشبيه المجمل**: و هو مالم يذكر فيه وجه الشبه و لا ما يستلزمه.

5. التشبيه القريب المبتذل: و هو ما كان وجه الشبه فيه واضحاً لا يحتاج إلى فكر و تأمل.

6. التشبيه البعيد الغريب: و هو ما كان وجه الشبه فيه يحتاج إلى فكر وتأمّل.

و يمكن مراجعة أمثلة هذه الأقسام في مظانها (8)، و سنكتفي في هذا المقام بتوضيح تشبيه التمثيل من خلال أحاديث النبي صلى الله عليه و سلّم، باعتباره محور الدراسة.

المبحث الثاني: دراسة تطبيقية للتشبيه التمثيلي في مجموعة من أحاديث النبي صلى الله عليه و سلّم:

أولا: مكانة التشبيه التمثيلي في الأسلوب الأدبي:

إذا كان التشبيه بصورة عامة يعمل على تقريب الفهم إلى الأذهان، و ترسيخ الفكرة في العقول، في جوّ من الخيال الرّحب الذي يجعل المتلقّي يحلّق في آفاق المعنى مجسّدا كأنّه صورة واقعية حيّة؛ فإنّ التشبيه التمثيلي يعمل على وجود تلك المعاني و الإحساسات الرّائقة، لما يحدثه في النفس من رواج فكري، و اعتمال نفسي واسع المجال (9).

و يمكن إبراز مكانة التشبيه التمثيلي في النقاط الآتية:

- إنّ التشبيه التمثيلي يعمل على إثراء الخيال و إطلاقه.
- يعتبر التشبيه التمثيلي أداة لإخراج المعاني من دائرة الخيال المطلق ليربطها بالواقع.
- هو صورة من الصور البيانية التي اعتمدها العرب في رسم صورهم الفنيّة، وإثبات ما يريدون إثباته من معنى عميق.

ثانيا: التشبيه التميثلي في أحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلّم:

تعتبر أحاديث رسول الله صلى الله عليه و سلّم مجالا فسيحا للتشبيه التمثيلي، حيث اتّخذه رسول الله صلى الله عليه و سلّم أداة لترسيخ المعاني العميقة في نفوس الصّحابة، بشدّ خيالهم و ربطه بصور محسوسة قريبة من مجال إدراكهم، و سنختار بعضا من هذه الأحاديث التي كان للتشبيه فيها وقعا على نفوس المتعلّمين، من خلال تفعيل خيالهم و إطلاقه، و ربطه بواقعهم المعيش – و أركّز في ذلك على مرحلة التعليم الثانوي من خلال مادة العلوم الإسلامية -

1/ الحديث الأوّل: عن النّعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلّم: **" مثل المؤمنين في توادّهم و تراحمهم و تعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" [صحيح البخاري 10/8: 6011]، و [صحيح مسلم 1999/4: 2586]**

أ/ وجه التشبيه في الحديث:

شبّه النبي صلى الله عليه و سلّم المؤمنين كجسد واحد، لأنّ الإيمان يجمعهم كما يجمع الجسد الأعضاء فإذا تأذّى عضو من الأعضاء يتأذّى الكل بتأذي البعض، و كذلك أهل الإيمان، يتأذى كلّهم بتأذي بعضهم.

و قد اتّخذ النّبي صلى الله عليه و سلّم من الجسد أداة للتّصوير و بعثا للخيال، فربط بين جماعة المؤمنين و الجسد، "و المشبّه و المشبّه به مفردان غير مركبين، و لكنّ وجه الشّبه بينهما مركّب من حالة التّرابط و التّكافل التي تجعل الأجزاء كلّها متساندة، حتى إذا طرأ خلل على جزء منها تأثّرت به سائر الأجزاء" (10).

فاعتمد التشبيه على التمثيل و المحاكاة و الرؤية البصرية – كما في رواية البخاري: ترى المؤمنين- لإبراز العنصر الجمالي في التعبير، قال القاضي عياض: "فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل صحيح، و فيه تقريب للفهم و إظهار للمعاني في الصّور المرئية، وفيه تعظيم حقوق المسلمين و الحضّ على تعاونهم و ملاطفة بعضهم بعضا" (11).

ب/ وجه الإعجاز البياني في الحديث:

أشار النبيّ صلى الله عليه و سلّم في الحديث إلى الصفات التي تجمع بين أفراد المجتمع، وهي صفات لا ينفك بعضها عن بعض؛ فالتّواد يجلب المحبة و يبعث على التراحم والتعاطف، و لولا أخوّة الإيمان ما اجتمعت هذه الصفات الثلاث.

كما أنّه صلى الله عليه و سلّم أشار من خلالها إلى أسباب قوة المؤمنين، فالمجتمع لا يهلك من الجوع و الفقر ما دام أفراده متراحمون متعاطفون؛ و إنّما هلاكه يكون بفقد هذه الصّفات التي تربطه، فإذا لم تتحرّك القلوب بالرحمة، توقفت الجوارح عن التواد و التواصل، و أحجمت النفوس عن التعاطف و التعاون فكان الهلاك.

و قد سرى في الحديث موسيقى هادئة تتناسب و طبيعة الموضوع، حيث جمع النبي صلى الله عليه و سلّم بين التراحم، و هو أمر قلبي إيماني، و بين التّواد و هو أمر حسيّ حركي يظهر في التهادي و التزاور و نحوهما، و التعاطف، و ما فيه من تفاعل و تعاون؛ فهذه الكلمات الثلاث، يربطها جرس موسيقي واحد، تتآلف معه مقاطعها و تتناسق أصواتها(12)

و يتخلّل المشهد صوت قويّ يثير الانتباه، و هو صوت تداعي بنيان الجسد، و قد اختار النبي صلى الله عليه و سلّم كلمة " تداعى" للإشارة على حالة الاستنفار القائمة في الجسم المريض(13). و معنى التّداعي: أن يدعو بعضه بعضا إلى المشاركة في التخلّص من المرض، و من معانيه أيضا: الانهيار و السقوط (14)، فإنّ مرض عضو واحد يؤدي إلى انهيار سائر الأعضاء، و كذا الحال في المجتمع؛ فكان لزاما الإسراع إلى نجدة المستغيث لضمان سلامة الجميع.

و ختم النبي صلى الله عليه و سلم الحديث بالنتيجة الحتمية للتداعي، و هي شكوى العضو المصاب. و هي شكوى حقيقية، و ليست على سبيل المجاز، إذ تنطلق في الحال إشارات عصبية حسيّة من مكان الإصابة على هيئة استغاثة إلى مراكز الحسّ و التّحكم غير الإرادي في الدماغ، فيرسل المخ إلى الأعضاء المتحكمة في عمليات الجسم الحيوية المختلفة أمرا عن طريق الغدد لإسعاف العضو المصاب و إغاثته بما يتلاءم و إصابته، أومرضه؛ و هذا جانب من جوانب الإعجاز العلمي في الحديث.

ومن العجيب الآن، أنّ العلماء الغربيين يطلقون على الجهاز العصبي الذي يتفاعل في حال تعرض الجسم للخطر والمرض، اسما وصفوا به حقيقة ما يفعله هذا النظام والجهاز و هو: (Sympathetic) ، وترجمته الحرفية هي: المتراحم المتواد المتعاطف. و هو عين ما سماه النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث " تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم "(15).

2/ **الحديث الثاني:** عن أَبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم قَالَ: "**إِنَّمَا مَثلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَ نَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا**

أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً" [صحيح البخاري 63/3: 2101] [صحيح مسلم 2026/4: 2628]

أ/ وجه التشبيه في الحديث: شبّه النبيّ صلى الله عليه و سلّم في هذا الحديث الجليس الصالح ببائع المسك الذي يجد الناس عنده ما يشرح صدورهم فيشمون منه رائحة طيبة، و شبه جليس السوء بكير الحداد الذي يصيب من يقترب منه شرر يحرق ثيابه أويشم منه رائحة كريهة تفوح من كيره فتؤذيه.

فالجليس الصالح جميعُ أحوال صديقه معه خير و بركة، و نفع، مثل حامل المسك الذي تنتفع بما معه، إما بهبة، أو ببيع، أو بانشراح الصدر لمجالسته و التمتّع برائحة المسك، وهذا تقريبٌ و تشبيهٌ له بذلك، و إلاّ فما يحصل من الخير الذي يصيبه العبد من جليسه الصالح أبلغ و أفضل من المسك: فإنّه إمَّا أن يعلِّمك ما ينفعك في دينك ودنياك، أو ينصحك بما هو خير لك، أو ينهاك عمَّا فيه مضرَّةٌ لك؛ فأنت معه في منفعة دائمة، وربحك مضمون - بإذن الله –

و أما مصاحبة جليس السوء، فشر كلّها، فهو إمّا أن يشجعك على فعل المعاصي والمنكرات، و يرغّبك فيها، أو يصدك عن الخير، و يمنعك عنه؛ و يكون قدوتك في الشرّ، و قد جاء في موعظة عمر بن الخطاب لرجل من رعيته:" لا تَتَكَلَّمْ فِيمَا لا يَعْنِيكَ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ، وَ احْذَرْ صَدِيقَكَ إِلا الأَمِينَ، وَ لا أَمِينَ إِلا مَنْ يَخْشَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُطِيعُهُ، وَ لا تَمْشِ مَعَ الْفَاجِرِ فَيُعَلِّمُكَ مِنْ فُجُورِهِ وَ لا تُطْلِعْهُ عَلَى سِرِّكَ وَ لا تُشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ إِلا الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ "(16).

وقد اتّخذ النّبي صلى الله عليه و سلّم من بائع المسك و نافخ الكير صورة لتمثيل الجليس الصالح و جليس السوء، فربط بين النظير و نظيره، منتقلا من التمثيل المجمل إلى التمثيل المفصل في جوّ من الإثارة و التشويق؛ فحامل المسك يمثل الجليس الصالح فيكثر خيره و تعمّ بركته، و نافخ الكير يمثّل جليس السوء فيكثر شره و يعمّ قبحه.

ج/ وجه الإعجاز البياني في الحديث:

اختار النبي صلى الله عليه و سلّم حامل المسك تحديدا ليمثّل الصالح، و نافخ الكير ليمثّل السيء، لأنّ مقتضى الكلام يوجّه النفس إلى خطورة ذلك الجليس، الذي يفيد بجلسته الدوام و الاستمرارية، و هو ما نجده في رائحة المسك و دخان الكير؛ و لذلك

استعمل النبيّ صلى الله عليه و سلّم صيغة المبالغة في قوله: "الجليس" ليظهر أثر كلّ جليس في جليسه.

كما أنّ في استعمال كلمة الجليس إشارة إلى تأثر الطباع بطول المجالسة و المصاحبة، فإنّ الطباع سراقة و الصحبة مؤثرة في إصلاح الحال و إفساده. قال الإمام الغزالي: "مجالسة الحريص و مخالطته تحرك الحرص، و مجالسة الزاهد، و مخاللته تزهد في الدنيا؛ لأنّ الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري" (17).

كما أنّ الرائحة الطيبة ترمز إلى رائحة الجنة التي تساعد الجليس الصالح للوصول إليها، بينما الإحراق و الريح الخبيثة ترمز إلى نار جهنّم، تحذيرا من مجالسة الصاحب السيء (18). و لهذا شبّه الصّلاح بالمسك لطيب ريحه و عزة وجوده؛ و شبّه السوء بالكير؛ لأنه لا يصلح إلاّ لإضرام النار و زيادة تسعيرها.

3- الحديث الثالث: عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **" مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَ الوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَ لَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَ مَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَ إِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا "** [صحيح البخاري 139/3: 2493]

أ/ وجه التشبيه في الحديث: هذا مثل عظيم يُشبّه فيه الرسول صلى الله عليه و سلّم حال الناس و موقفهم مما يكون في المجتمع من منكرات بحال قوم ركبوا سفينة فاقتسموا أماكنهم فيها بطريق القرعة، فكان من نصيب بعضهم الجزء الأعلى من السفينة، و كان من نصيب الآخرين الجزء الأسفل منها، فإذا عمد الذين في الأسفل إلى خرق السفينة تحقيقا لمصلحتهم في جلب الماء، و سكت عنهم الذين في أعلاها، و لم يمنعوهم، فإنهم لا يغرقون أنفسهم فحسب، وإنما يغرق كلّ من في السفينة؛ فكذلك حال من في المجتمع، فإنه لا يخلو مجتمع من بعض صور المنكر و الفساد التي يقدم عليها ضعاف الإيمان الجاهلون بحدود الله، الذين يزيّنون لأنفسهم ارتكاب المنكرات

بالحرية الشخصية، فإذا قام أهل الرشد بواجبهم في إنكار هذه المنكرات و الأخذ على أيدي الظالمين صلح المجتمع ونجا الجميع من غضب الله عزّ و جل، وأما إن تقاعسوا عن هذا الواجب و غلبت كلمة المداهنين (19) هلك الجميع، و تلك سُنّة إلهية لا تتغير. قال الحافظ ابن حجر: "و هكذا إقامة الحدود يحصل بها النجاة لمن أقامها و أقيمت عليه، و إلاّ هلك العاصي بالمعصية و الساكت بالرضا بها" (20).

ب/ وجه الإعجاز البياني في الحديث:

تضمّن هذا الحديث جوانب بلاغية راقية تعجز عن أن تدانيها فصاحة الفصحاء و بلاغة البلغاء؛ و من ذلك:

أ/ من حيث المعاني: فقد استعمل النبي صلى الله عليه و سلّم في هذا الحديث الأسلوب الخبري، حيث يخبرنا فيه بحال الناس، و يشبههم براكبي سفينة؛ غير أنّ هذا الأسلوب الخبري قد خرج على خلاف مقتضى الظاهر، فليس المراد من الخبر هنا مجرّد إفادة السّامع بالخبر، و لا إفادته أن المتكلّم عالم بالخبر، و إنما الغرض منه الحثّ و تحريك الهمّة نحو القيام بواجب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

ب/ من حيث البديع: في الحديث من المحسنات البديعية ما يزيده رونقا و جمالا، ففيه: الطباق في جمعه بين (القائم) و (الواقع)، و بين: (أعلاها) و (أسفلها)، و بين: (هلكوا) و(نجوا).

والطباق هنا من نوع طباق الإيجاب، وهو الذي يُعرِّفه البلاغيون بأنه ما جُمع فيه بين الشيء و ضده؛ فالقائم ضد الواقع، و الأعلى ضد الأسفل، و الهلكة ضد النجاة.

و لا شك أن هذا الطباق قد أبرز المعنى و زاده وضوحاً، فإنّ الضدّ يُظهر حسنَه الضدّ – كما يقولون -و بضدها تتميّز الأشياء. و يزيد من حسنه أنه أتى في كلامه صلّى الله عليه وسلّم عفواً لا يحس المرء فيه شيئاً من التكلّف المذموم، الذي يفقد الكلام سلاسته ويحبس المعاني و الأفكار.

ج/ من حيث البيان: اشتمل الحديث من الصور البيانية على ما يلي:

- **الاستعارة:** في قوله صلى الله عليه و سلم: "القائم على حدود الله"، و هي استعارة مكنية، شبهت فيها المعاصي بوهدة (21) من أرض محدودة بحدود

وحولها حراس يمنعون الناس من الوقوع فيها، ثم حذف المشبّه به و أتى بلازمة من لوازمه و هي الحدود؛ و نفس الشيء يقال في قوله : "الواقع فيها".

و هذا تعبير يوحي بمدى الهوّة السّحيقة التي يهوي إليها أصحاب المنكر المخالفين لأمر الله، و مدى خطورة الواجب الملقى على عاتق المصلحين في الأمة، فهم حراس الفضيلة القائمون على حدود بئر الرذيلة، مانعين الناس من التساقط فيها.

- **الكناية**: في قوله صلى الله عليه و سلّم: "أخذوا على أيديهم"، فإنّ الأخذ على اليد كناية عن استعمال الشدة و القوة. و التعبير بـ "على" يفيد الاستعلاء والفوقية، كما قال الحافظ ابن حجر: قوله "تأخذ فوق يديه" كنّى به عن كفّه عن الظلم بالفعل إن لم يكفّ بالقول، و عبّر بالفوقية إشارة إلى الأخذ بالاستعلاء و القوة" (22).
- **التشبيه التمثيلي**: في قوله صلى الله عليه و سلّم: "مثل القائم على حدود الله..."، و هو تشبيه معقول بمحسوس؛ شبهت فيه الهيئة الحاصلة من قيام المسلمين بواجبهم في تغيير المنكر بالهيئة الحاصلة من قيام أهل السفينة بمنع من يريد خرقها من الإقدام على ما يريد؛ كما شبهت الهيئة الحاصلة من التّقاعس عن تغيير المنكر بحال أهل السفينة إن تركوا من يريد خرقها يفعل ما يشاء.

و وجه الشبه هنا صورة منتزعة من متعدد؛ و هي منتزعة في الحالة الأولى من هيئة النجاة المترتبة على قيام قوم بما يجب عليهم، و في الحالة الثانية من هيئة الهلاك الناجم عن تقصيرهم في ما يجب عليهم؛ فكما أن أهل السفينة سينجون إن أخذوا على يد من يريد خرقها، فإنّ النجاة ستكون مصير الجميع في مجتمع يأخذ أهله على يد العابثين، و كما أنّ الغرق سيكون مصير أهل السفينة إن تركوا مريد الخرق يفعل ما يريد فإنّ مجتمع المداهنين السّاكتين عن أهل المنكر سيؤول إلى هلاك محتم.

و من هنا يمكن القول بأنّ تعدّد الجوانب البلاغية في هذا الحديث دليل على فصاحة النبي صلى الله عليه و سلّم، و بلاغته التي لا يدانيها أحد من البلغاء؛ و ما اجتماع هذه

المعاني في أحاديثه إلاّ إلهام النبوة، و نتاج الحكمة، "فخرج سبكه خالصا لا شوب فيه، و كأنّما وضع يده على قلب اللغة، ينبض تحت أصابعه" (23).

المبحث الثالث: الجانب الإعجازي في تشبيهات النبي صلى الله عليه و سلّم:

أوّلا: الإعجاز في الحديث النبوي:

1- المعنى اللغوي و الاصطلاحي للإعجاز: يدور معنى الإعجاز في اللغة حول الضعف، والتّأخّر عن الشيء، والقصور عن فعله، فهو ضدّ القدرة. و مصدر عجز: الإعجاز، ومنه اشتقت كلمة المعجزة.(24)

وأمّا في الاصطلاح ، فيطلق الإعجاز و يراد به: "الأمر الخارق للعادة المقرون بالتّحدي مع عدم المعارضة" (25).

غير أنّ هذا التعريف يحصر المعجزة في الأمور المحسوسة التي وضعت للتحدي.

و جاء في تعريفه أنّه: "أمر يجريه الله على يد نبيّه، أو علم يبديه من قوله، لا يقدر أحد على الإتيان بمثله في زمانه، يكون دليلا على نبوّته لخروجه عن طاقة الخلق" (26). وهذا التعريف جامع لجميع وجوه الإعجاز، فيدخل في الإعجاز ما عدّ من دلائل النبوة، وعلاماتها.

2- معنى الإعجاز في الحديث النبوي:

لكلّ نبيّ معجز يظهرها الله على يديه، تكون دليلا على صدقه، و دافعا لقومه ليندفعوا لما جاء به؛ فكانت معجزة كلّ نبي وفق ما برع فيه قومه؛ و لمّا كان العرب ليس لهم إلاّ اللسان و قوّة البيان، اختار الله لهم معجزة من جنس ما برعوا فيه، فكانت معجزة النبيّ صلى الله عليه و سلّم هي القرآن الكريم، تلك المعجزة الكلامية التي تبقى شاهدة عبر كل العصور على تقدّم الإنسان في عقله و تفكيره و علمه.

و قد بيّن الله تعالى في كتابه العزيز أنّ ما ينطق به النبي صلى الله عليه و سلّم، مصدره وحي رباني، **" و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى"** [النجم: 3-4]؛ هذا الوحي الذي يعلّمه ما لم يعلم، فيفيض لسانه بالكلمات المهداة والأسرار العجيبة، التي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها؛ فهو صلى الله عليه و سلّم لا يتكلّم كلاما من عنده، بل هو موحى إليه من ربّ السموات و الأرض.

و السُنّة النبوية و إن كانت ألفاظها منتقاة من رسول الله صلى الله عليه و سلّم إلاّ أنّها كلمات ربانية. يقول رسول الله صلى الله عليه و سلّم: "**ألا و إنّي أوتيت القرآن و مثله معه**" [مسند الإمام أحمد 410/28: 17173)؛ و قال لعبد الله بن عمرو عندما سأله عن كتابة ما يسمعه منه صلى الله عليه و سلّم: "**أكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلاّ حقّ – و أومأ بأصبعه إلى فيه**-" [مسند الإمام أحمد 58/11، و صححه الألباني].

فإذا تقرّر أنّ السُنّة النبوية مصدرها الوحي الرباني، فهل يمكن القول بأنّها معجزة كإعجاز القرآن الكريم؟

الأمر الذي لا شكّ فيه أنّ السُنّة النبوية فيها من وجوه الإعجاز ما في القرآن الكريم كالإعجاز العلمي، و الغيبي؛ أمّا الإعجاز البياني و اللغوي فهذا جانب اختصّ به القرآن الكريم، لكونه كلاما ربانيا يعجز الإنس و الجن عن الإتيان بمثله، و كلمات الرسول صلى الله عليه و سلّم بشرية المصدر، فلم تكن معجزة من هذا الجانب، و من هنا استطاع بعضهم محاكاة الأسلوب النبوي، فأخرجوا ما يسمى بالأحاديث الموضوعة.

و قد ذكر الشيخ مصطفى الزرقا في مقال له الفرق بين أسلوب القرآن و أسلوب الحديث، فقال: "الفرق عظيم جدا بين أسلوب الحديث النبوي، و أسلوب القرآن في طريقة البيان العربي، فبينهما شقّة واسعة، لا يشبه أحدهما الآخر... و إنّ هذا التفاوت الكبير بين الأسلوبين راجع لكونهما يصدران من مصدر مختلف. فالحديث النبوي جاء كلّه على الأسلوب المعتاد للعرب في التخاطب، تتجلى فيه لغة المحادثة و التفهم والتعليم والخطابة، و يعالج جزئيات القضايا و المسائل و يحاور و يناقش على نحو ما يتخاطب به سائر الناس؛ و لكنه يتميّز عن الكلام العربي المألوف بأنّ فيه لغة منتقاة غير نابية، وأنّ فيه إحكاما في التعبير، و جمعا للمعاني المقصودة بأوجز طريق و أقربه دون حشو، ممّا استحقّ به التسمية بـ: جوامع الكلم؛ أمّا أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد النّاظر فيه و السّامع شبيها فيما يعرف من كلام العرب، و أساليبهم" (27).

و رغم ذلك فإنّنا نجد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم شيئا من طابع الإعجاز البياني، يتمثّل في قوّة الأسلوب، و جزالة الألفاظ، و متانة التركيب، وبلاغة المعاني. قال ابن حجر: "إنّ دخول القرآن في قوله: "**بعثت بجوامع الكلم**"، لا شكّ فيه، وإنّما النّزاع هل يدخل غيره من كلامه من غير القرآن؟" (28) ثم قال: "و إنّما يسلّم ذلك فيما لم

تتصرّف فيه الرواة في ألفاظه" (29)؛ و من هنا يمكن القول بأنّ السُنّة فيها شيء من الإعجاز.

فألفاظ النبوّة و إن لم تكن من الوحي و لكنها جاءت من سبيله – كما قال مصطفى الرافعي (30)– و من هنا تكون أخذت منه شيئا من إعجازه؛ و هو – كما قال الجاحظ- : "الكلام الذي قلّ عدد حروفه، و كثر عدد معانيه، و جلّ عن الصّنعة، و نزّه عن التكلف.. فلم ينطق عن ميراث حكمه، و لم يتكلّم إلاّ بكلام قد حفّ بالعصمة، وشدّ بالتأييد" (31).

ولو قارنّاه بكلام العرب لوجدناه أكثرهم فصاحة، و أحسنهم بيانا؛ فإنّ العرب و إن أجادوا الكلام و هذّبوه، إلّا أنّهم فعلوا ذلك عن تكلّف و صنعة، و لا يخلو كلام أحدهم من العيب و الزّلل.

3- جوانب الإعجاز البياني في تشبيهات النبي صلى الله عليه و سلّم:

تبيّن لنا من خلال الأحاديث التي اخترناها بعض جوانب الإعجاز في تشبيهات النبي صلى الله عليه و سلّم، و لا يسعنا المقام لذكر جميع أنواع التشبيه التي استعملها عليه الصلاة و السلام لتوضيح المعاني و ترسيخها في الأذهان، و لكنّنا يمكن أن نشير إلى أهمّ جوانب الإعجاز في تشبيهات النبي صلى الله عليه و سلّم في النقاط الآتية:

- الدّقة في اختيار الألفاظ، و العبارات.
- الانتقال من الإجمال إلى التفصيل للإثارة و التشويق.
- تعدّد الأساليب البلاغية من غير تكلّف أو تصنّع.
- مناسبة الكلمات للموقف، و التناسق فيما بينها.
- الدّلالة بأقصر العبارات على أوسع معنى.
- إخراج المعنى المجرّد في صورة حسيّة ملموسة.

الخاتمة:

إنّ الحديث النبوي الذي يعتمد التشبيه يأتي في أعلى درجات البلاغة، لأنّه يصل الخيال بالواقع المحسوس؛ و يشوّق النفوس إلى سماع الحديث، و يحفّز العقول على فهم وجه الشبه؛ فينفعل الوجدان و تتحرّك الجوارح، و ينتبه العقل، فتعمّ الفائدة؛ و لو اكتفى

النبيّ صلى الله عليه و سلّم في أحاديثه بأسلوب الأمر و النهي لملّ النّاس و انصرفوا عنه؛ و لكنه بحكمته و علمه الرباني، يختار لكل موقف ما يناسبه من أسلوب، و يتحدّث مع النّاس على حسب قوّة إدراكهم.

و من هنا استخدم النبي صلى الله عليه وسلّم "التشبيه التمثيلي" لأجل تعليم الناس وإرشادهم، و زيادة في إفهامهم، و تصويرا للمعاني في لوحات فنيّة متنوعة، تنوّعا يدلّ على أنّها خرجت من مشكاة النّبوة.

و من أجمل ما جاء في تشبيهات النبيّ صلى الله عليه و سلّم أنّها مقتبسة من بيئة الناس، مخاطبة لهم بما يعرفون ويدركون، فصوّر المجتمع بالسفينة، و شبّه الجليس الصالح ببائع المسك، و جليس السوء بنافخ الكير، و كلّها صور معروفة لدى السامعين.

و هذا ما ينبغي لكلّ معلّم أن يسعى إليه في إيصال المفاهيم للمتعلّمين، فينتقي من التشبيهات ما يتناسب مع مداركهم، وبيئتهم، إذ التشبيه ليس هدفا في حدّ ذاته، وإنّما هو وسيلة لإظهار المعاني و توضيح المفاهيم.

قائمة المراجع:

1- أحمد بن حنبل، (1421هـ- 2001م): المسند، 50، تحقيق: شعيب الأرناؤوط و آخرون، ط الأولى، مؤسسة الرسالة، (366/12)، (410/28)، (58/11)، (360/30).

2- ابن الأثير، نصر الله بن محمد الشيباني، (1420هـ): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،2ج، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (93/2).

3- ابن حجر العسقلاني، (1379هـ): فتح الباري شرح صحيح البخاري، 13ج، دار المعرفة، بيروت، (439/10)، (98/5)،(296/5)،(248/13).

4- ابن عساكر أبو القاسم علي بن الحسن،(1415هـ- 1995م): تاريخ دمشق،80ج، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة، (103/53).

5- ابن منظور، جمال الدين، (1414هـ): لسان العرب المحيط، 15ج، ط الثالثة، دار صادر، بيروت، (503/13)، (262/14)، (369/5).

6- د/ ألتونجي محمد، (2012هـ- 1433م): الجامع في علوم البلاغة،ج1، ط الأولى، دار العزة و الكرامة للكتاب، وهران، الجزائر، ص 148.

7- البرهانفوري علاء الدين، (1401هـ- 1981م): كنز العمال في سنن الأقوال و الأفعال، 18ج، تحقيق: بكري حياني، ط الخامسة، مؤسسة الرسالة، (18680/7).
8- البيهقي أحمد بن الحسين،(1423هـ- 2003م): شعب الإيمان، 14ج، تحقيق: عبد العلي عبد الحميد، ط الأولى، مكتبة الرشد، الرياض،(1366/3).
9- الجرجاني عبد القاهر، (1422هـ- 2001م): أسرار البلاغة في علم البيان، ج1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ص 73.
10- الخطابي، حمد بن محمد، (1399ه): العزلة، ج1، ط الثانية، المطبعة السلفية القاهرة.
11- الخطيب القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، (1424هـ- 2002م): الإيضاح في علوم البلاغة،3ج، ط الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 164، 168.
12- الرازي، محمد بن أبي بكر، 2008م: مختار الصحاح، ج1، دار الإرشاد للنشر، سوريا، ص 108.
13- الرافعي مصطفى صادق، (1393هـ - 1973م): إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ج1، ط التاسعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ص 286.
14- د/ صالح بن أحمد رضا، (1421هـ- 2001م): الإعجاز العلمي في السنة النبوية، ج1، ط الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، ص 18.
15- د/ عبد العزيز عتيق، (1405هـ- 1985م): علم البيان، ج1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ص 61.
16- د/ عبد الرزاق موسى محمد السيد، التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي، ج1، نسخة إلكترونية، عن موقع مكتب فلسطين للكتب المصوّرة، ص6، 16، 35.
17- الفيروزابآدي، (1430هـ- 2009م): القاموس المحيط، ج1، ط الأولى، شركة القدس للنشر و التوزيع، ص 325.
18- المباركفوري أبو العلا محمد،(دط.دت): تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، 10ج، دار الكتب العلمية، بيروت، (42/7).
19- المبرّد محمد بن يزيد، (1417هـ- 1997م): الكامل في اللغة و الأدب، 4ج، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، (41/3).

20- د/ هدارة مصطفى، (1989م): علم البيان، ج1، ط الأولى، دار العلوم العربية، بيروت، ص 37.

الهوامش:

(1) انظر: ابن منظور: لسان العرب، (503/13).

(2) انظر : الرازي: مختار الصحاح، ص 108.

(3) انظر: ابن الأثير: المثل السائر، (93/2).

(4) انظر: عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة في البيان، ص 73.

(5) انظر: المبرد: الكامل في اللغة و الأدب، (41/3).

(6) انظر: د/ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 61.

(7) انظر: الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص 164.

(8) انظر على سبيل المثال: الخطيب القزويني، مرجع سابق، ص 168 و ما بعدها؛ د/ محمد ألتونجي، الجامع في علوم البلاغة، ص 148 و ما بعدها.

(9) انظر:د/ محمد السيد عبد الرزاق موسى:التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي،ص 6.

(10) انظر: د/ مصطفى هدارة: علم البيان، ص 37.

(11) انظر: ابن حجر: فتح الباري، (439/10).

(12) انظر: د/ عبد الرزاق موسى: التشبيه التمثيلي في الحديث، ص 35.

(13) انظر: المرجع نفسه، ص 35.

(14) انظر: ابن منظور: لسان العرب، (262/14).

(15) انظر: د. ماهر محمد سالم: ظاهرة الشكوى و التداعي، عن الموقع الإلكتروني: www.hameedki.com

(16) انظر: الخطابي: العزلة، ص48.

(17) انظر: المباركفوري: تحفة الأحوذي، (42/7).

(18) انظر: التشبيه التمثيلي في الحديث، ص 16.

(19) و المدهن: من الإدهان و هو المصانعة و المحاباة في غير حق، و قد روي الحديث عند أحمد بلفظ: "مثل المدّهن والواقع في حدود الله..." [مسند أحمد، 360/30: 18410].

(20) انظر: ابن حجر: فتح الباري، (296/5).

(21) و هي الحفرة، و الأرض المنخفضة. انظر: الفيروزابآدي: القاموس المحيط، ص 325.

(22) انظر: ابن حجر: فتح الباري، (98/5).

(23) انظر: الرافعي: إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، ص 286.

(24) انظر: ابن منظور: لسان العرب، (369/5).

(25) انظر: د/ صالح بن أحمد رضا: الإعجاز العلمي في السنة النبوية، ص 18.

(26) المرجع نفسه، ص 21.

(27) د/ صالح بن أحمد رضا: الإعجاز العلمي في السنة النبوية، ص 34.

(28) ابن حجر: فتح الباري، (248/13).

(29) المرجع نفسه، و الصفحة نفسها.

(30) انظر: الرافعي: مرجع سابق، ص 279.

(31) عن المرجع نفسه، ص 282.